

(أسئلة التاريخ والحرية في رواية "وقائع حارة الزعفراني")

لـ"جمال الغيطاني"

الدكتور: عبدالقادر حميدة، جامعة الجلفة-

تمهيد:

إن هذه المسألة تمتح حضورها من تعدد الإحياءات في متن الغيطاني، وتتجلى في جهة الأنثروبولوجيا التي وصفها بختي بن عودة يوما قائلا: "أليست جهة الأنثروبولوجيا هي المكان الفارغ والمنسي في اليومي le quotidien"¹، ولعل أية مسالة لمجتمع ما، هي في إحدى أبعادها الفنية العملية "الخوض عميقا في الواقع، اختراق قشرة سطحه الخادعة غالبا، للوصول إلى ما هو جوهري وأصيل فيه"²، وخاصة أن هذا الواقع غالبا ما يقسم إلى ثنائية: المركز والهامش، الحقيقة التي نعلنها والحقائق التي نخفيها، ما نقوله، وما نسكت عنه، ما تضيئه زاوية الرؤية وهي تنبري محددة للمركز وللهامش، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، وما تركنه جانبا، ثم تدحرجه إلى عالم النسيان، من هنا انبعثت كتابة الغيطاني في روايته الجميلة والمكتنزة "وقائع حارة الزعفراني" جاءت لتحفر في منطقة يتداخل فيها الخيالي بالمخيالي بالرمزي، ولتحاول استثارة ما هو غير مرئي، ما هو متواجد في العلاقات بين المرئيات والتفاعل بينها.

سؤال الحرية وأسئلة التاريخ والواقع:

إننا باستفهامنا حول التاريخ والواقع ومسافة الحرية خلالهما، ومن خلالهما، نحن لا نقف على حافة واقع واضح كما هو، وإنما الواقع كما يتجلى لنا، "من خلال الإحياءات والتأويل، والهابيتوس Habitus بتعبير بيير بورديو، والتمثل الجمعي Représentation collectif بتعبير إميل دوركايم، بل إن هناك واقع آخر سماه جاك بيرك "المعيش الجمعي" le vécu collectif وسماه الروائي المصري خيرى شلبي جوهر الحياة.

¹ بختي بن عودة: بختي بن عودة: قراءة غير بريئة في "التبيين" من بلاغة العنوان إلى تواضع التأسيس، مجلة التبيين، العدد 1995/09، منشورات جمعية الجاحظية، الجزائر، ص7.

² جهاد عطا نعيسة: في مشكلات السرد الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001، ص320.

ويبدو لي أنه من المستحيل على أي علم اجتماعي أو إنساني أن يقرأ الواقع كما هو ويفهمه كما هو، لأن ما نعتبره نتيجة بحث علمي، يظل مجرد وهم قابل للنقض في أية لحظة، فالواقع الفعلي قد يكون متواجدا بين الأشياء المرئية والخفية، وفي التفاعل بينها، أستحضر هنا مقولة الروائي الكوبي كابريرا أنفتي ميغال ريبيرا الذي جزم أنه ليس بإمكانه التحدث "عن شيء اسمه الواقع الآن، الواقع قد تحول في العديد من المرات إلى شيء آخر، إلى حلم، إلى كابوس"³، ومنه فإنه ليس بإمكان أية صرامة منهجية أن تدعي فهمها المطلق للواقع، ومنه أيضا نعتقد أنه على العلوم الاجتماعية والانسانية والفنية والأدبية أن تغامر لتفهم تلك الأشياء الخفية، وأن تعدد مناهجها في سبيل ذلك، وأن تنوع في إجراءاتها، عليها تقترب قليلا من فهم الظاهرة المراد دراستها، والاستفهامات التي يكون ممكنا طرحها..

إذن في أي منطقة نحن الآن، هل نحن في الواقع أو فيما يتجلى لنا من الواقع؟ هل نحن في الجد أم في اللعب، ويبدو لي أن اللعب، والكسل، والهامش، ثمرات أجدي من أضدادها، ولا نبتعد كثيرا عن كتاب للفيلسوف الهولندي فزينجا Vezinja بعنوان "الرجل الذي يلعب" L'homme qui joue، والذي اعتبر فيه الأدب كأحد أشكال اللعب إنه لعبة اجتماعية بامتياز..

وها هو بيير بورديو Pierre Bourdieu⁴ نفسه يبين لنا أن اشتغال حقل معين مشروط بوجود رهانات وأشخاص يلعبون اللعبة، مزودين في ذلك بالهابيتوس Habitus الذي يقتضي المعرفة والاعتراف بالرهانات والقوانين الملازمة للعبة، الخ.. من هنا فإن هذا اللعب يسعى إلى الاربك، إرباك الحقائق التي تبدو نهائية وخلختها، تعرية زوايا المسكوت عنه، رمي حجر في بحيرة راكدة، إنه شغب السؤال، ووجوب الاستفهام، "السؤال كيان مكتمل، والجواب أيا كان ناقصا"⁵ يقول جمال الغيطاني، إننا إذن في منطقة يقين بين شكين، أو شك يتولد عنه شك آخر، إننا نحفر، نحرك، نزعج، ننبش باحثين عما وراء الظاهر، عما وراء ما يتبدى لنا، إننا نتلصص عليها، أصوات "مكتومة تحت ستار من الصمت الكاذب..⁶

ومنه فقد قررنا بدءا، أن نلعب مع الواقع لعبة الشك، أن نسائل المجتمع العربي لا مباشرة، وننزل إلى واقعه الحين الفعلي، الذي لن نستطيع رصده مهما حاولنا، بل أن نلجأ إلى ديوان العصر: الرواية، فهي التي بإمكانها أن

³ حوار مع الروائي الكوبي كابريرا أنفتي، ميغال ريبيرا، ترجمة يوسف بوطاروق، ملحق الأثر، ع 106 29 جانفي 2008 ص 22.

⁴ بيير بورديو: عالم اجتماع فرنسي، مولود عام 1930 ومات عام 2002، له عدة مساهمات تنظرية جريئة منها كتابه المهم بالاشتراك مع كلود باسرون: إعادة الإنتاج، وكان أول عمل بحثي مهم كتبه عن الجزائر بعنوان: سوسيولوجيا الجزائر

⁵ جمال الغيطاني: دفاتر التدوين: دفتر السادس رن، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2009، ص 49.

⁶ خيري شلبي: وكالة عطية، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2009، ص 23.

تقربنا منه، لأنها تحكي هذا المجتمع ولا تحكيه، لأنها تنطلق من بناء لتهدم وتعيد بناء جديدا، لأنها السؤال الاجتماعي المفتوح الذي علينا ألا نهمله، ألا نقع أسرى للسطحي وأمامنا الرواية تحاول جاهدة التوغل إلى العمق، إن الرواية في مجتمعنا العربي اليوم هي ما يمكنني أن أسميه مستعيرا من تعبير عبدالكبير الخطيبي "الهامش اليقظ" سأسميه تبعا لذلك بـ "الواقع اليقظ"..⁷

ومنه فإن هذا الواقع اليقظ سيمكننا من قراءة وفهم الممارسات التي تبدوا للبعض "هامشية" و"منحرفة"، وتساهم في بناء رؤية سليمة وواقعية للمجتمع، معتبرة أن "المجتمع الذي لا يعمل سوى على اتهام أفعال مواطنيه، بدلا من فهمها، هو مجتمع جامد ومتكلس"⁷. ومنه فإن الفن يحاول أن يقول الطقوس، ويرسم الموزاييك الشعبي بلمسة أسرة، وبلغة بسيطة لكنها مرتبة وهادفة.

ولا يقتصر الاشتباك مع قضايا الحاضر على الروايات التي تجري في الحاضر، بل يمتد إلى الروايات التي تدور أحداثها في الماضي، وهو في هذه الحالة اشتباك مضمرة عادة ما يلجأ إلى المجاز أو تقديم عالم مواز لعالمنا المعيش أو للواقع المعيش، لا ليقدم واقعا آخر، بل ليعيد حكاية الواقع على مستوى آخر، مستوى يوازي ويتلاحم ويتقاطع ليقول في النهاية ما يمكن أن نتفق على تسميته بواقع الرواية، وهذه المهمة ليست يسيرة، لما تطرحه من عقبات ومحاذير، ولعل الخشية الأولى هي أن يطغى التاريخي على الأدبي والفني، وهنا نكون في منطقة التاريخ لا في منطقة الأدب، "إن كتابة رواية معاصرة برؤية تاريخية هو شيء في غاية الصعوبة"⁸

أسئلة العتبة والرواية:

ولعل أول مفارقة هي التي تحملها لنا العتبة، حيث العنوان هنا يوهم بأنه يحصر الحكاية في (حارة الزعفراني)، بينما نجد أن ما يسمى بحارة الزعفراني قد يتسع ليشمل مدينة أو بلدا أو مجتمعا بأكمله، فالعنوان "يجب أن يشوش على الأفكار، لا أن يحولها إلى قوالب مسكوكة"⁹، وذلك ما اضطلعت به مهمة هذا العنوان، حيث أربكت السؤال، بأن فتحته مشرعا على الاستفهام، مما يعني وخز المخيال ليلعب دوره في تحديد رقعة

⁷ حسن رشيق: سيدي شمهروش الطقوسي والسياسي في الأطلس الكبير، تر، عبد المجيد جحفة، ط1، دار إفريقيا الشرق، مراكش، المغرب، 2010، ص7.

⁸ فرانسواز شاندارناجور: أكتب بقوة الخوف، حوار: كريستين فرنيو، تر: منار كامل، أخبار الأدب، ع 719 يوم: 2007/04/22، مصر، ص15.

⁹ أمبرتو إيكو: آليات الكتابة السردية، ت سعيد بنكراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، 2009، ص22.

الدلالة، وحدود المكان، ولا حدود الإمكان، فهذا العنوان "في طريقه نحو اكتماله يعلن عن هويته، يرتفع إلى ميكرو-نص Micro-texte كاف بذاته، موصل لقانونه الخاص"¹⁰.

كان جمال الغيطاني منتميا لشرطه، متوافقا مع تكوينه، واجتهاده ورغباته، كان حبه للقاهرة ولحواريها الأرضية التي بنا عليها حلمه الروائي ذلك أن الرواية كما يقول فيصل دراج "لا (يخلقها) أفراد أو (اجتهادات) ذاتية، وإنما ينتجها شرط تاريخي معين، وينتج معها، ووفق شروطه، أفرادا يمارسون الكتابة الروائية"¹¹، ولا أدل على هذا الانسجام مما صرح به الغيطاني نفسه حين قال: "القاهرة القديمة ديوان مفتوح للخط، فتجد كل أنواع الخطوط على الجدران، وكل متر في تلك المدينة له تاريخ، كان الأفق في القاهرة يفتح لدي المدارك للخيال، من هنا بدأت القراءة، وأول كتاب قرأته هو (البؤساء) لفكتور هوجو، وأتذكر أنني اشتريت الكتاب بخمسة قروش حصلت عليها في يوم العيد"¹².

"وجمال الغيطاني الذي يتناول بالدرس الجاد الآثار الأدبية العربية القروسطية ينوع دوما الشكل التوليقي الأسلوب لروايته منتقيا (نموذجا) له. فمرة ينتقي الأخبار التاريخية وأخرى الرسالة الصوفية أو الرسالة الإخوانية (رسالة في الصبابة والوجد) سنة 1987 أو وصف الأرض التاريخي الجغرافي (الخطط الغيطاني) سنة 1981 ويتقن جمال الغيطاني ... التوصل إلى جعل روايته تخلف انطبعا بأنها تجمع في الوقت نفسه ما بين التقليدية والعصرية"¹³، وتعد رواية (وقائع حارة الزعفراني) أحد أهم الأعمال التي تعكس رؤية الغيطاني للمجتمع العربي، مستعينا في تبيان ذلك بتقنياته المعهودة عنه منذ (أوراق شاب عاش من ألف عام)، ومرورا ب(الزيني بركات)، وذلك أن استخدامه للتاريخ، وللعصر المملوكي "لم يكن في اتجاه الرمزية، بقدر ما كان في اتجاه محاولة فتح آفاق جديدة للواقعية"¹⁴ إن رواية (وقائع حارة الزعفراني) نص مميز لأنه انفتح على الواقع، وحاوره مباشرة، برأس مرفوع، وعينين حادتين، لم يوارب، ولم يراوغ، بل حاول الدنو من الشرارة، إنها (المحاكاة) عند

¹⁰بختي بن عودة، المرجع السابق، ص 09.

¹¹فيصل دراج: العلاقة الروائية في العلاقات الاجتماعية "الرواية ونمط الانتاج"، مجلة الطريق، السنة الأربعون، العدد 3 و4، أغسطس، 1981، ص ص 33/34.

¹²سوزان العامري: جمال الغيطاني.. 50 عاما من الكتابة، جريدة الإمارات اليوم، يوم 2011/11/26.

¹³فاليريا كيربيتشكو: الرواية المصرية بعد الستينات، مجلة فصول، المجلد الثاني عشر، العدد 1، ربيع 1993 (زمن الرواية-الجزء الثاني)، ص 164.

¹⁴جمال الغيطاني (حوار) مجلة المجالس، ع 27، يوم 1985/04/27، ص 66.

ببير بورديو. والطبعة التي اعتمدنا عليها في هذه القراءة هي الطبعة الخامسة، الصادرة عن دار الحوار باللاذقية بسوريا، العام 2005.

سؤال الحرية وأسئلة الهيمنة والخضوع:

لقد كان جمال الغيطاني في رواية "وقائع حارة الزعفراني" وفيها ومنسجما مع رؤيته للفن الروائي وللكتابة الإبداعية في هذا الجنس الأدبي، حيث أنه ظل يعتبر "الرواية تركيب وهي أقرب الفنون إلى العمارة"¹⁵ فقد استثمر واستفاد من دراسته "للعمارة في معهد ليوناردو دافنشي"¹⁶ واستفاد أكثر في حبه ونسجه لخيط هذه المنمنمة ولنحته لهذا البناء الفني من مطالعته "اليومية في عبقرية مصر بالذات في فن العمارة"¹⁷، وبعبقرية تمكن الغيطاني من تأييد تلك العمارة بمختلف الإحياءات Connotations التي تحوم حول بؤرة الحدث الذي لم يكن شيئا آخر غير سلطة الدولة القمعية التي تجعل من الهلع خبز المواطن اليومي..¹⁸ وبالتالي فهي تطرح ثنائية الهيمنة والخضوع، وتتعامل مع مفهوم السلطة بكل مستوياته الممكنة، المدركة وغير المدركة، الواعية واللا واعية، المتغلغلة في الخيال الفردي، والكامنة في المخيال الجمعي Imaginaire collectif.

لقد عمد الغيطاني في (وقائع حارة الزعفراني) إلى بناء شخصيات خيالية، ضمن أحداث متخيلة، لكنها مبنية على أحداث واقعية جرت في زمن ما، غير محدد تماما، لكن الإشارات النصية توحي أنه زمن المماليك، وهنا بين الغيطاني باقتدار كيفية كتابة الرواية التاريخية، التي تجعل من التاريخ خلفية فنية، تطعمها وقائع ما، لقد كان الغيطاني مثله مثل الروائية الفرنسية فرانسواز شاندار ناجور التي قالت عن بنائها بشخصياتها التاريخية ما يلي: "ولكني أحيانا أضطر لبناء الشخصية التاريخية من الداخل أي أتخيل أو أخمن بعض نواحي حياتها ولكن دون مغالطة للحقائق التاريخية"¹⁹.

إن كل أحداث الرواية يربطها خيط واحد، هو (هيمنة) الشيخ عطية من وراء حجاب، وعن طريق واسطة (عويس) على الحارة، وقد اعتمد الراوي تقنية (التقارير) من جهة ما، موحيا إلى جهة أمنية، ويحرص الراوي على

¹⁵ جمال الغيطاني: المزيد من التأصيل لتحقيق خصوصية بناء الرواية العربية، حوار أجرته: وهيبة. م، جريدة صوت الأحرار، ع 493، يوم 1999/10/10، الجزائر، ص 16.

¹⁶ نفس المرجع، ص 16.

¹⁷ نفس المرجع، ص 16.

¹⁸ رضوى عاشور: الروائي والتاريخ "الزيني بركات لجمال الغيطاني، مجلة الطريق، العدد المزدوج 4/3، أغسطس، 1981، ص 131.

¹⁹ فرانسواز شاندار ناجور: أكتب بقوة الخوف، مرجع سبق ذكره، ص 15.

إبراز مكانة الشيخ وسلطته الروحية بما هي سلطة رمزية Autorité Symbolique على الحارة وغيرها، من خلال رسم الصورة الأسطورية له، وذلك بسرد ما يحكى عنه، حيث تعتبر مثل هذه الحكايات، أولى آليات هيمنة مثل هذه الشخصيات، الحكاية التي يضعها جيلبير ديران Guilbert Durant ضمن تقنيات بناء المخيال L'imaginaire فقال الراوي عن الشيخ عطية بأنه "ولد من بطن أمه نابت اللحية، تكلم بالقرآن قبل خروجه من الرحم، ماتت أمه بمجرد ولادته..²⁰، كما أنه "في مولد الحسين يجيء الصوفية وأرباب الطرق، ينزلون عند بعض السكان، يفترشون الحارة، الشيخ يحتجب خلال المولد، يتردد اسمه في قرى مصر وكفورها ونجوعها..²¹.

ولعل الوجه الآخر لآليات الهيمنة هي آليات الخضوع، وهنا يمكننا أن نستدل بما قاله إيتيان دو بويسي Etienne De Boétie محاولاً الاستفهام عن الجماعات الخاضعة بطرحه لسؤال مهم هو: "أريد فقط أن أفهم كيف يمكن لكل هذه الجماعات من الناس والمدن والأمم أن تتحمل أحياناً طاغية متوحدا ليس له من قوة إلا القوة التي تعطى له، وليس من سلطة في إلحاق الضرر بهم إلا بقدر ما يريد الناس أنفسهم ضمان استمراريتها، وليس له أن يتسبب لهم في مضرة إذا لم يكونوا هم يحبون أن يعانون من بطشه أكثر من أن يناقضوا قوله..²².

إننا إذا فككنا آليات الهيمنة، فإن أولى تمظهراتها هي (الحكاية الأسطورية)، إذ أنه لا يمكن صنع هيمنة ما، بدون حكايات غرائبية، نسميها في فضاءات الجذب (الكرامات)، أو (خوارق العادات)، ولأن الغيطاني يدرك ذلك سلفاً، فقد كان حريصاً في رسمه للشخصية المحورية شخصية المجذوب الشيخ عطية أن يحكى بعض الخوارق عنه كقوله: "في عام 1944 قال للست أم سامية إن الشمس يوم الجمعة القادم لن تشرق على ابنك، وفعلاً صعدت روحه إلى السماء قبل شروقها بساعة..²³. كما أن صناعة الهيمنة، تعني من جهة ثانية بالضرورة صناعة الخوف، وهنا نلاحظ أن الرواية سارت في اتجاه يمكن وصفه سوسيولوجياً بالصحيح، فيكفي لتبيان صناعة الخوف من الشيخ أن نجىء بما حكاه الراوي عنه: "يرهبه الأهالي بلا شك، لا ينسون المصائب التي تعرض لها بعض من حاولوا النيل منه..²⁴، ويضيف في مكان آخر: "ذكره أحدهم بما جرى لزميل لهم عند الشروع في

²⁰الرواية، ص 64.

²¹الرواية، ص 64.

²²Etienne de boétie: *discours de la servitude volontaire*, payot, 1978, p15

²³جمال الغيطاني: وقائع حارة الزعفراني، ط5، دار حوار، اللاذقية، سوريا، 2005، ص 95.

²⁴الرواية، ص 66.

هدم مقام سيدي الحلوجي أثناء توسيع ميدان الحسين، بمجرد رفع يده بالمعول جمدت، شلت، حدث هذا أمام مقام ولي مات منذ زمن، فمن يدري ماذا سيجري وهذا الشيخ حي يرزق؟²⁵.

ومن آليات الهيمنة ما يصطلح عليه بالبركة، وهنا نجد الغيطاني لا يغفل ذلك، ونستدل على ذلك بقوله في الرواية: "يقول رأس الفجلة مقاطعا: إن بركة الشيخ تمنع البيت من الانهيار..²⁶ إن الهيمنة من جهة تقتضي بالضرورة خضوعا من جهة ثانية، وبالتالي فإن البركة والكرامة، بقدر ما تكونان آليات هيمنة من الشيخ، ومن المستفيدين من الرأسمال الرمزي Le capital symbolique (عويس مثلا)، فإنهما في نفس الوقت آليات خضوع في الطرف الآخر (سكان الحارة)، فالاستسلام لبركة الشيخ يترتب عليه سلام في الحارة، ويقين ساكن، وحماية يحتاجها الخائفون "إن الشيخ يحمي الزعفراني كلها"²⁷. وهذا يستلزم طاعة عمياء، بدون مناقشة للأوامر، أو مجادلة للأفكار والآراء، طلبا لرضا الشيخ، وطمعا في كرمه، واجتنابا لأذاه، ف"مخالفة الشيخ تؤدي إلى مزيد من غضبه"²⁸. إن وجود شخصية كاريزمية يساعد على سلاسة عملية الوهم التي يخضع لها المعجبون والمريدون والتابعون والطامعون، حيث إن الغيطاني "نحدث عن إمكانية تأثير الوهم في حالة وجود شخصية قوية تعمل في ظروف معينة"²⁹.

إن رواية الغيطاني، تشرح تراتبية ما، إنها وهي توجي بإعادة البناء، إنما تعيد إنتاج البناء La reproduction de la structure عن طريق هرم سلطة موازية، ينطبق حديثنا هنا تماما، مع ما أكدده فخري صالح في قراءة للخلفية الفكرية لدى الغيطاني أثناء كتابته لرواياته بقوله أنها: "محاولة جريئة لإنشاء خطط معاصرة تستفيد من أشكال الكتابات التراثية، وطرق توزيع العناوين الفرعية، ووضع عناوين للفقرات، والإيحاء بفضاء تاريخي ينتسب إلى الماضي، ويعمل هذا القناع التاريخي في الخطط على شرح مراتبية السلطة، وأسباب الصراعات فيها، وارتقاء بعضهم إلى هرم وتقهر البعض الآخر، ونزوله سلم الهرم، وما يهمنا في هذا السياق هو أن عمل الغيطاني يظل يتمتع بالخصائص البنيوية للرواية"³⁰.

²⁵الرواية، ص ص 108، 109.

²⁶الرواية، ص 108.

²⁷الرواية، ص 121.

²⁸الرواية، ص 166.

²⁹الرواية، ص 244.

³⁰فخري صالح: الرواية العربية وأشكال السرد التراثية، مجلة الآداب، ع 1-2 يناير، فبراير 1998، ص 58.

لكن محاولة إظهار توازن ما، في مجتمع فاقد لهذا التوازن، تبدو استجابة لطبيعة الأشياء، حيث يسعى المجتمع في حالة تنامي الفوضى في أجزائه، إلى السعي في البحث عن صيغة توازن ما، فلم يفوت الغيطاني هذا الجانب، إذ قام بعرض الصورة الأخرى، صورة المعارضة الراضية لهذه السلطة الدينية، والتي اعتبرت ما يرمي إليه الشيخ عطية "عبث مؤكد من مخرف يحاول فرض إرادته على الزعفراني بالنصب..³¹".

وهنا تجب الإشارة إلى التنوير، والدور الذي يجب أن تلعبه المعرفة في فك قيود هذا الخضوع لهيمنة تستخدم الخرافة، وتسعى إلى تكبيل العقل لممارسة سلطتها وسيطرتها عليه، إنها تذكر بالصراع بين ثنائية العلم والدين التي جسدها نجيب محفوظ في (أولاد حارتنا)، فإذا كان نجيب محفوظ قد عرى آليات الصراع داخل الحارة ورسم صورة للعالم العربي وفكره من خلالها، فإن (حارة الزعفراني) التي تمثل عينة للعالم العربي ذاته، بكل نقائصه، ونقائصه، وتجلياته، تؤكد على هذا الدور المحوري للتنوير الذي يطرح الأسئلة، ويسعى إلى وخز الواقع المريض، فنجد الراوي هنا على سبيل المثال يشير إلى ذلك بقوله: "ثار التكرلي، كيف يصدق مهندس تلقى تعليمه في أوروبا مثل هذه الخرافات؟..³²"، وأيضاً حين "أبدى طاحون ضيقه من هؤلاء الحمقى الذين يخترقون تعاليم الشيخ المباركة"³³.

إن الغيطاني بطريقته يطرح الأسئلة الملحة للحرية في مجتمع مكبل بأوهام الخرافة والخضوع، مجتمع يعيد إنتاج أوهامه كل حين، وكأن الغيطاني ما كتب بهذه الطريقة الروائية السوسيو-تاريخية الفذة إلا ليؤكد أنه "إذا لم نستطع التحرر من التصور اللاهوتي القروسطي للعلاقة بين الله والإنسان، فإننا لن نستطيع التحرر على المستوى السياسي والاجتماعي أو الاقتصادي والأخلاقي"³⁴.

سؤال الحرية وواقع الحارة:

سؤال الحرية في واقع مصمت كهذا هو السؤال الأكثر إلحاحاً، لأنه سؤال يحاور عدة مستويات، فهو سؤال وجود، وسؤال التطلع إلى حياة متوازنة، وسؤال التحرر من الرقابة، والانعتاق من الهيمنة، إنه السؤال الأول

³¹ جمال الغيطاني، وقائع حارة الزعفراني، ص 104.

³² الرواية، ص 109.

³³ الرواية، ص 168.

³⁴ محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني، ص 281.

والأخير، أو قل الوحيد في (حارة الزعفراني) وبالإزاحة في (المجتمع العربي)، هو السؤال الذي تنضوي تحته بقية الأسئلة، إذ تفقد كل الأشياء معانيها في غياب الحرية.

إن سؤال الحرية في رواية (وقائع حارة الزعفراني)، هو السؤال الذي يظل يلاحقنا منذ البداية، وكلما تقدمنا في القراءة، كلما كبر بداخلنا هاجس البحث عن منفذ ما، عن كوة أمل ما، عن خلاص ما، هاجس تفنن الغيطاني في رسمه داخلنا، حتى نشعرنا بقيمة التحرر من هيمنة الخرافة، والتخلف، والجهل، ومن خطورة الذهنية الغيبية التي يقف وراءها (مجتمع الإتكالية والعجز) بتعبير هشام شرابي.

إن الغيطاني لا يناقش مسألة الحرية، بقدر ما يسعى إلى زرع قيمتها داخلنا، إن وصف الظلمة غايته التحسيس بقيمة الضياء، وهكذا فقد تمكن الغيطاني من رسم واقع عربي ما، من خلال حارة لا يهتم اسمها وعنوانها بقدر ما يهتمنا حالها وما يجري داخلها، وكيف ينظر إليها من الخارج.

ولكي يتمكن من كل ذلك، فقد اختار عقب التاريخ، لا ليسرد التاريخ، بل ليعيد رسم الحاضر من خلاله، ولتكون له فسحة من حرية ما، تمكنه من القول والحكي، وبناء العوالم بمتعة المتحرر من الرقيب، فسحة لا تكون الكتابة الحقيقية إلا بها، وأيضاً لأن الغيطاني يدرك "أن المنقضي أكثر وضوحاً من الحاضر، وأن فيه ما يفسر الأخير ويوسع مداه، عبر الروائي المصري الكبير في الحالين، عن أزمة ذاتية، ودلل على أن (الرواية التاريخية) مهما كان شكلها، احتجاج على الحاضر، وبحث عن أفق".³⁵

إن الغيطاني حين ركز روايته في زمن مضى، وحاول بناء عالم الرواية وفق ذلك الزمن، تقنية وديكورا وربما حتى لغة، فإنه لا يكتب التاريخ، ولا يسعى إلى ذلك إطلاقاً، بل هو يتمترس بذلك الديكور ليخاطب واقعه، ناشدا لحرية ما في القول والرأي، حرية تجنبه مغبات لو أنه تعرى من ذلك الزمن وأعلن أنه في الزمن الحاضر، إنها فسحة لثنائيات الماضي/الحاضر، الحقيقة/الخيال، وذلك أن "الخيال عند الروائي مقدس والحقيقة مجال للانتهاك، ولا بد أن العكس صحيح عند المؤرخ".³⁶

³⁵ فيصل دراج: رواية الأجيال والنظر إلى الأمل، آراء حرة (زاوية شهرية ثابتة)، مجلة دبي الثقافية، العدد 82، شهر مارس 2012، ص 55.

³⁶ طارق علي: تأملات في الرواية والتاريخ، ندوة الرواية والتاريخ، دار الكتب القطرية، 2005، ص 30.

خلاصة:

لا يمكن أن نجد عبارة افضل لختم هذا الموضوع المقتضب وفتحته في نفس الوقت على آفاق جديدة من الدرس والتفكير، من عبارة جمال الغيطاني نفسه في أحد حواراته، والتي كانت في جواب عن استفسار حول اختياره زاوية التاريخ في كتابته للإبداع الروائي، حيث قال أنه خلال عملي لم يكن همي محاولة "البحث عن صوت خاص في إطار الأدب العربي فحسب بل كل ما قرأته من تراث الانسانية، وأظن انني حققت هذا التميز"³⁷، ونحن نعتقد أن الصوت الذي يرن في (وقائع حارة الزعفراني)، وفي (الزويل)، وفي (الزيني بركات) وفي (دفاتر التدوين: الدفتر السادس: رن) وفي أعمال أخرى يضيق المجال عن ذكرها كلها، صوت مميز، يحمل نبرة العتاقة في التاريخ، والجدة في اللغة، والتجاوز في الإيحاء، لقد تمكن الغيطاني فعلا من خلاله متنه بناء صوت مميز في تراث الانسانية.

المصادر والمراجع:

المصادر:

- 1- الغيطاني جمال: وقائع حارة الزعفراني، الطبعة الخامسة، دار حوار، اللاذقية، سوريا، 2005.

المراجع باللغة العربية:

- 1- الغيطاني جمال: دفاتر التدوين: الدفتر السادس رن، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2009.
- 2- أركون محمد: قضايا في نقد العقل الديني، ترجمة هاشم صالح، الطبعة، دار الطليعة، بيروت، لبنان
- 3- إيكو امبرتو: آليات الكتابة السردية، ترجمة: سعيد بنكراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، 2009.
- 4- زيمابيير: النقد الاجتماعي نحو علم اجتماع للنص الأدبي، ترجمة: عائدة لطفي، الطبعة الأولى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991.

³⁷ جمال الغيطاني: المزيد من التأصيل لتحقيق خصوصية بناء الرواية العربية، حوار سبق ذكره، ص16.

- 5- عطا نعيصة جهاد: في مشكلات السرد الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001.
- 6- علي طارق: تأملات في الرواية والتاريخ، ندوة الرواية والتاريخ، دار الكتب القطرية، 2005.
- 7- رشيق حسن: سيدي شمروش الطقوسي والسياسي في الأطلس الكبير، ترجمة عبد المجيد جحفة، الطبعة الأولى، دار إفريقيا الشرق، مراكش، المغرب، 2010.
- 8- شلبي خيري: وكالة عطية، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2009.

مقالات وحوارات في مجالات:

- 1- العامري سوزان: جمال الغيطاني.. 50 عاما من الكتابة، جريدة الإمارات اليوم، يوم 2011/11/26.
- 2- الغيطاني جمال (حوار) مجلة المجالس، عدد 27، يوم 1985/04/27.
- 3- الغيطاني جمال: المزيد من التأصيل لتحقيق خصوصية بناء الرواية العربية، حوار أجرته: وهيبة. م، جريدة صوت الأحرار، عدد 493، يوم 1999/10/10، الجزائر.
- 4- بن عودة بختي: قراءة غير بريئة في "التبيين" من بلاغة العنوان إلى تواضع التأسيس، مجلة التبيين، العدد 1995/09، منشورات جمعية الجاحظية، الجزائر.
- 5- دراج فيصل: رواية الأجيال والنظر إلى الأمل، آراء حرة (زاوية شهرية ثابتة)، مجلة دبي الثقافية، العدد 82، شهر مارس 2012.
- 6- كابريرا أنفتي، ميغال ريبيرا، ترجمة يوسف بوطاروق، ملحق الأثر، عدد 106، الجزائر نيوز: 29 جانفي 2008.
- 7- كيربيتشنيكو فاليريا: الرواية المصرية بعد الستينات، مجلة فصول، المجلد الثاني عشر، العدد 1، ربيع 1993 (زمن الرواية-الجزء الثاني).
- 8- صالح فخري: الرواية العربية وأشكال السرد التراثية، مجلة الآداب، عدد 1-2 يناير، فبراير 1998.
- 9- عاشور رضوى: الروائي والتاريخ "الزني بركات لجمال الغيطاني، مجلة الطريق، العدد المزدوج 4/3، أغسطس، 1981.

10- شاندارناجور فرانسولز: أكتب بقوة الخوف، حوار: كريستين فرنيو، ترجمة: منار كامل، أخبار الأدب، عدد 719 يوم: 2007/04/22، مصر.

المراجع باللغة الأجنبية:

1- Etienne de boétie: discours de la servitude volontaire, payot, 1978.